(6) المناورة التربوية

صاحب التجربة يعلم أن التجميع وضم الأنصار إلى الدعوة يتجاوز مجرد تحصيل الولاء للدعوة ممن يمنحه لنا، وإنما يجب أن يقترن بالولاء فهم ووعى يكون به الموالى على مدرستنا، وذلك هو واجب المربى مع كل عنصر جديد؛ يشرح له، ويتخير له من الكتب ما يتقدم به خطوة بعد أخرى فى طريق حيازة فكرنا الدعوى الخاص واجتهادنا، **وأنا أسمى ذلك:** «تمحيض التربية»، بحيث ندع الوافد إلينا يميز طريقتنا وأساليبنا من بين ما هو مطروح فى الساحة الإسلامية الواسعة، وندعه يعرف موازيننا فى العمل والفروق عن غيرنا، ولا يكفى الفهم العام المجمل، وذلك لأنه سيأخذ مكانه معنا فى الصف كداعية منتسب يمثلنا، فيجب إذن أن يقول قولنا ويلتزم فقهنا ومذهب إمامنا، وأما الولاء المجرد فإنه مطلوب أيضًا، ولكن ليس فى مراحل التأسيس والتدرج والتوسع، وإنما فى المراحل الأخيرة، حين نكون قد أكملنا صفّ صفوفنا، وتحتاج خطتنا السياسية آنذاك إلى جمهور ضاغط نرضى منه أن يقدم لنا الولاء فقط، لأنا نعجز عن تربيته مباشرة بوسائل الاجتماع والشرح والمتاعبة، وإنما ندع وسائل إعلامنا العامة وخُطب زعمائنا تربيه، والكتب إن استطاع أن يقرأ.

سبب «تمحيض المدرسة» أن الناس الذين يملكون أخلاقًا حسنة ويقتربون من أوصاف الصلاح، والذين هم أول من يتوجه إليهم اهتمامنا التجميعى: يخضعون لمؤثرات إسلمية متنوعة، ويسمعون مزيجًا من الآراء يصل محتواها أحيانًا إلى حدود التناقض، فتصب فيهم المناهج المدرسية فى تدريس الدين، وخطباء الجمعة، والوعاظ، ودروس تليفزيونية، ومقالات إسلامية فى الصحف، ومنهم من يشترى كتبًا إسلامية لا يتحكم فى اختيارها ميزان، لذلك تكون حصيلتهم خليطًا من فكر سلفى وخلفى، وتفاؤلى وتشاؤمى، واجتهادى وتقليدى، وتشددى وتساهلى، وأصيل وخرافى، ثم إن مقادير استيعابهم مختلفة، والمؤثرات البيئية متنوعة، ولذلك تكون صياغتهم عديدة، ويلزم ردهم إلى الوسطية والاعتدال التى عندنا، وإلى الفهم الشمولى، والتدرج التخطيطى الذى تمر كل مراحله بالتربية الإيمانية واستشعار المسئولية فى إصلاح النفس ثم الأسرة ثم المجتمع ثم الحكم.

obeikandl.com

obeikandi.com

*** فمن نماذج الموالين لنا:** رجال لا تكون مبالغ هممهم أكثر من الركض وراء خطباء العاطفة، فتراهم يلبثون مواسم عديدة فى حالة من النشوة النفسية التى سببها الشحنات التى يفرغها فيهم بعض فصحاء الوعاظ أهل الإثارة وتأجيج الحماسة وصنعة تهييج العوام، فيتولد إعجاب عند مثل هذه العناصر الموالية يقود إلى الامتلاء المعنوى الذى لا يصاحبه تعلّم الأحكام الشرعية، أو المقارنات الفكرية، أو التحليل السياسى، بل ولا التفكر الإيمانى الهادئ والتعبّد والتنفل الكثير، ومثل هذا ينبغى أن نرده إلى بعض العقلانية وفهم الواقع، وإلى منهجية علمية، **وأهم من ذلك:** إخراجه إلى نمط عملى يكون به صاحب مبادرات، وليس مجرد متلقٍّ مستروح لدغدغة العواطف التى لا تفرض عليه ضريبة من البذل والتعب فى إصلاح غيره أو المشاركة فى إصلاح المحيط والمجتمع.

*** ومن نماذج المقربين منا:** صاحب علم شرعى والتزام، لكن تصرعه المبالغة فى التقليد المذهبى، واعتقاد أن إمامه لا يخطئ، وفى ظاهر الأمر أن الداعية يمكن أن يكون مقلدًا لأى مذهب من مذاهب أهل السنة والجماعة، لأن دعوتنا لم تر إلزام دعاتها بمذهب من المذاهب الأربعة أو مذهب أهل الحديث، وهذا صحيح، وهو من أسس مدرستنا، ولكن استيعاب الداعية للاجتهاد الدعوى الكثير فى مسائل السياسة والحكم والتنظيم والإصلاح الاجتماعى والممارسة الجهادية لن يكون تامًّا إذا كانت هناك مبالغة فى التقليد، لأننا نعمل فى محيط معقد، ويلزم شيء كثير من رؤية المصالح والضرورات، والتجول بين الخيارات التى تتيحها اختلافات الفقهاء يجعل أمرنا أكثر يُسرًا، وإنشاء قول جديد أحيانًا أمر لابد منه، والداعية المقلد يمكن أن يقلد فى أبواب العبادات وأحواله الشخصية، ولكن نعلمه احترام المذاهب كلها، وإمكان الاجتهاد فى القضايا العامة، لأن فكرنا الدعوى العام ومنحاه فى الوسطية إنما انبنى على ذلك، وانفتح، وتخيّر، ولجأ إلى موازين وقواعد مستقاة من الفقه المقارن.

*** ومن نماذج من يدور فى دائرتنا:** أصحاب الأشواق الجهادية النارية، الذين لا يعترفون باستعداد وتمهيد وتدرج واختيار ظرف فيه مواتاة، وكلنا نؤمن بالجهاد ونحب الشهادة، وهتاف دعوتنا العتيد أن «الجهاد سبيلنا»، ولكن نؤديه ضمن الشمول، ونمارسه ضمن التخطيط البعيد المدى والاستعداد، والتجربة الأخيرة بعد حادثة أبراج نيويورك وما تلاها من حرب الأفغان الثانية وتصاعد ردود فعل جهادية، هذه التجربة كشفت عن أن

الحماسة تغلب أحيانًا ما ينبغى أن يكون من موازنات عقلانية ومفادات فكرية وتخطيطية، إذ سرت فى أوساط إسلامية كثيرة مشاعر الانتقام من الظلم الأمريكى، وأهدرت خلال اختلاط الصيحات أشياء كثيرة من النظر الفقهى الصحيح، والرؤى المصلحية، وتم طرح تصورات ساذجة لمعنى الجهاد، ونُسيت فى غمرة ردود الأفعال أسئلة: كيف يكون الجهاد، ومتى يكون، وأين يكون، وممن يكون، وتجاه من يكون؟

والأمر الدعوى غير ذلك، ومن أول معانى العمل الجماعى الدعوى الواعى: أن نكون فوق ردود الفعل، وأن ندرس برويّة أحوال السياسة العالمية، وواقع الأمة الإسلامية، ونضع رؤية شمولية لها أهداف بعيدة مرحلية، وتكون التربية ركنًا أساسيًّا فى ذلك، ثم نثبت على الخطة الناتجة من هذه الرؤية الشمولية، من دون أن تستفزنا طوارئ وأحداث تقحم نفسها.

والذى حدث من ميل بعض الجمهور الإسلامى إلى استحسان نداء الجهاد غير المدروس ولا المستعد له يفرض على الدعاة أن يلجئوا مع أنصار الدعوة إلى «تمحيض المدرسة» الذى قلناه آنفا، وأن يكونوا صرحاء فى تفهيم معنى الجهاد وبيان أن الأشواق العاطفية الجهادية هى أمر غير الجهاد الواعى المحكوم بخطة ومقدرة، والذى تلزمه قيادة ماهرة وجندية متربية، والمواقف الدعوية لا تحددها هتافات المتظاهرين الغاضبين، وإنما تمليها أحكام الشرع ودلائل التجارب ومنهجية فهم الواقع واستشراف المستقبل، وإذا كان أصحاب العواطف هم الأكثر، والدعاة أصحاب الوعى التخطيطى هم الأقل. فهذه ظاهرة قديمة ما هى بجديدة، وتدل على مصيبة دائمة، نصبر لها ولا نطيش، ونأبى متابعة رجل الشارع، ونبرأ ممن يُفجّر الأبنية ويسمى نفسه مجاهدا، إذ ليس غير مجازف، وإنما نتبع العلم والتحليل والمقارنة، ونتقدم بحكمة وعلى بصيرة، مهما استعجل العاطفيون، واتهمَنا بالقعود المغامرون، ومحن الدعوة متنوعة، منها: أن يكذبنا ملحد أو ظالم فاسق، ومنها: أن لا يرتضى سيرتنا الموزونة المؤمنون المتهورون، فيتهمونا بالقعود والتخلف عن الجهاد وتكون «مشاكسة إيمانية» يُحركها الشيطان فى غفلة من نفوس عاشقى الجهاد حين تستولى العاطفة ولا تدع للعقل والتروى والإنصاف مجالًا، وفى القديم خرج الخوارج وهم أوفر الناس صلاة وقتلوا أمير المؤمنين تقربًا –بزعمهم– إلى الله.

* **ومن نماذج من نطمع فيهم:** أتقياء أهل صدق فى التوجّه، ولكنهم أهل فتور فى التعلم، وبينهم وبين الكتاب حِجاب، ولربما بذلنا جهدًا ووقتًا فى تعليمهم وتربيتهم الأولى، حتى إذا ما ألف أحدهم الحياة المسجدية وعرف «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين»: مال إلى أناس يبلغون الدين ويتعبدون لا يزيدون، لما يجد فى بعدهم عن الشمول من سقوط فرائض التعلّم والجهاد والإصلاح الاجتماعى والتغيير السياسى، وقصر الأمر على إصلاح النفس والعبادة، حيث لا يكون مصدر علمه الإسلامى أثناء تطوره فى حياته كلها غير كتابين فقط لا ثالث لهما، أو كتب مَن أسَّس الجماعة فقط ولا تلمس يده كتابًا مما أبدعته أجيال علماء الإسلام على مرّ القرون، ولى تجربة ذات دلالة، فإنى أشفقت فى يوم من الأيام على بعض مثل هؤلاء القريبين منّا ممن أعلم أنهم لا يملكون مكتبة خاصة فى بيوتهم، فحملت بعض الكتب الفقهية إلى أحدهم هدية، فدفعها وأبى وزهد بها، فحملتها إلى آخر مثله: فتملص ورأيت الكراهة فى وجهه، كأنه ظن أنى سأطالبه بقراءتها، فعلمت أنهم ما حرموا أنفسهم من مكتبة خاصة عن فقر أو تأويل، وإنما هبطت هممهم العلمية إلى درجة لا يثير معها ذكر الكتب شوقًا إليها أو حفاوة بها، كما هو أمرنا -أصحاب الشمول- ومات فيهم عرق التعلم، وأنهم على غير استعداد للتحوّل عن أقدارهم ودفع قَدَر الجهل بقَدَر المعرفة والبراهين ولو كانوا من العابدين.

* **وعلى النقيض من هؤلاء:** تقى يطالع ويقرأ ويقتنى، لكن استفزته بدع فى حياة المسلمين، فيقصر اهتمامه على إنكارها عليهم، ويهجم هجومًا فى ذلك بلا رفق ولا نسبية، ولا يعينه أفق عريض، وإنما يشرع يدندن حول صغائر ويدع التفكير فى مصائب المسلمين الكبرى.

فجميع هذه النماذج من الممكن أن تجد لها فى صفوف دعوتنا مكانًا، وذلك هو أحد أسباب الانخزال أو الفتن، والعلاج المنهجى إنما يكون بحرص المربى الذى يتصل بهم على «تمحيض المدرسة» وشىء من القول الصريح، وإبقاء الواحد من هؤلاء خارج الصفوف أولى وآمن، مع بذل المودة لهم وإدامة الصداقة وأنواع الخدمة والشفاعة الحسنة؛ لأن نقاء الصف ضرورى، ووحدة الفهم أساس، ولسنا نهدر فقه شروط التوثيق من أجل تكاثر.

الترميم وسدّ النقص من ضرورات منهجية التربية

وفى ظنى أن فترة العمل الدعوى الماضية فى بعض الأقطار شهدت «تسربات» أثناء غياب عملية «التمحيض» هذه؛ إما لزحمة الأعمال، أو لقلة الآلة التربوية فى يد المربين، وبخاصة: الكتب المنهجية التى تحوى منطقًا وعلمًا يعالج هذه الظواهر وأمثالها.

لذلك أقترح سلسلة من الكتابات التكميلية للفكر الدعوى العامر بحمد الله، وهو كثير مبارك وافر الصواب عميم النفع، ولكنه لم يكتمل بعد، وفيه ثغرات يجب أن نملأها، ومتون قديمة يجب أن تنالها يد الترميم والتجديد والإضافة، واللجان التربوية فى الأقطار المخضرمة هى التى يجب أن تقدح الزناد؛ بتحريك بعض الدعاة من أهل الطاقة الفكرية لإنتاج شىء فى ذلك، ثم تتولى الظاهرة الحيوية العامة إبقاء الأصلح الأقوى منطقًا وبرهانًا، أو ينبغ لاحق يتولى جمع محاسن الكتابات فى الموضوع الواحد ويودعها مع إضافاته ومقارناته فى مدونة منهجية هى أتم من أصولها، وهذه هى سُنة التطور العلمى والمعرفى دوما.

وأرى أن المحاور الرئيسة فى هذا الترميم والتكميل هى:

* **أولاً:** توظيف الكم الهائل من الدراسات الجامعية ورسائل الماجستير والدكتوراه التى تلتقى مع فكرنا وأهدافنا فى خدمة عمليات الإعلام الدعوى ونشر الفكر والتربية القبلية والبعدية، وهذه خطوة لابد منها، وبعض هذه الرسائل قد تحتاج الاختصار والتهذيب حتى تكون الاستفادة منها أمثل، وبعضها مغمور يحتاج إلى إبراز، وبعضها لم يطبع أصلاً، وعدد ما هو بهذا الوصف منها لا يقل عن ألف رسالة وبحث من بين خمسة آلاف أنتجها الدارسون، ولذلك ينبغى أن تودع هذه المهمة إلى «مؤسسة» خاصة تتجرد لهذا الميزان من الانتقاء الدعوى لا بموازين أخرى، وإذا نجحنا فى ذلك فإنا نكون قد أنجزنا عملًا أصيلًا هو من أدل معانى منهجية التربية الدعوية، ونكون قد أتممنا جرد خلاصة عقول ألف مختص ووضعناها فى خدمة الدعوة.

كان أحدهم قد تجرّد أكثر من ثلاث سنوات عن الملهيات لينجز بحثه، مع العلم أن الأوساط الدعوية محرومة اليوم حتى من «ببلوغرافيا» تقوم بإحصاء ما هنالك والتعريف به بنظرة دعوية لا عامة، وهذا عزوف لا سبب له، والكتاب العام قد تناله أيدى بعض الدعاة

obeikandi.com

فيجعلونه من مراجع مؤلفاتهم، لكن وضع الختم الدعوى عليه من قبل هذه المؤسسة يجعل رواجه بينهم أوسع، ويد التهذيب والاختصار تضاعف مدى الانتفاع منه.

* **ثانيًا:** التوظيف المنهجى للكم الهائل من التحليل السياسى الإسلامى والوصف الأمين للوقائع والأحداث مما حوته مقالات المجلات الدعوية؛ **مثل:** الدعوة، والمجتمع، وقضايا دولية، والإصلاح، والسبيل، ورسالة الإخوان، فإن المقالات تنسى، وإذا تقادم عهد المجلة فلربما تُهمل وتُتلف، بينما تحوى أكثر المقالات والتحليلات موازين دائمة النفع، وأنواعًا من الأخبار نادرة، واللائق أن نديم الانتفاع منها عبر تصنيفها موضوعيًّا، والتصرف فيها بالحذف والاختصار، وخلط معانيها ومفرداتها فى تبويب جديد، بحيث ينتج منها أكثر من عشرين كتاب ربما حول قضايا: فلسطين وخطط الصلح، والنظام العالمى الأمريكى، وحروب الأفغان، وحرب الخليج، وحصار العراق، والصراع حول النفط، والحريات، ونزاع المياه، وحكم الجنرالات، وأوضاع البوسنة والبلقان، وأوضاع المسلمين فى آسيا الوسطى، والعنف فى الجزائر، ومشكلة جنوب السودان، وتفتيت إندونيسيا، وأمثال ذلك، وأنا أقدر وأفهم أن جعل أى كتاب منها أو غيره كتابًا منهجيًّا هو من الأمور الصعبة التى تحكمها موازين كثيرة، وبخاصة ما فى ذلك من إيحاء الاعتراف بمعانيه وتبنى الجماعة لها، إذ فى الأمر حساسية تمنع ذلك، وإنما أدعو إلى حل هذه القضية المعضلة بحل وسيط يتمثل فى ابتكار ما يكن أن نسميه «الكتاب المزكَّى» أو «الكتاب المقترح»، وهى سلسلة كتب تصدر عن مؤسسة دعوية خاصة يتم إعلانها لهذا الغرض، بحيث تضع مقدمة للكتاب ترشحه خلالها للمطالعة والرواج بين الدعاة، لا على أنه كتاب يمثل وجهة نظر رسمية للجماعة، ولكن على أنه من الكتب النافعة التى تلتقى عمومًا مع توجهات فكر الجماعة وتحليلها، وإذا أتممنا هذه الخطوة وواصلنا نشر ما سيتراكم لاحقًا فسنكون قد خطونا خطوة واسعة فى سبيل تحقيق منهجية التربية الدعوية وضاعفنا حجم الوعى السياسى فى الأوساط الدعوية من دون جهد كبير، إذ إن أصول هذا الوعى مدونة فى مقالات قديمة صدرت ولكنها نسيت، ولا تحتاج غير عملية «إحياء» وبعث وترويج.

* **ثالثًا:** مواصلة منهجى فى تهذيب بعض كتب الأئمة الأولين وتحويرها وإجراء بعض التكييف لها لتكون أكثر نفعًا فى الاستخدام التربوى الدعوى، وقد أنجزت بحمد الله

openkana.com

ونشرت: تهذيب مدارج السالكين، وتهذيب العقيدة الطحاوية، فكان لهما أثر بحمد الله طيب فى التربية الدعوية، وصدر الآن غيث الغياثى على نفس الطريقة، وإحياء الإحياء ليس ببعيد إن شاء الله، ويحتاج الأمر جهدًا آخر يقدمه بعض الدعاة لإنجاز تهذيب كتب نافعة أخرى، ونكون بذلك قد خططنا خطًّا واضحًا فى منهجية التربية الدعوية، ولكن هذه العملية التهذيبية لا يصلح لها مبتدئ يظن أن الأمر لا يتعدى حذف شىء وإقرار شىء، بل هو أمر ذوقى دقيق يقوم على موازين وتجربة تربوية وخلفية علمية وحصيلة نقدية، وإنما يصلح له متمرس أطال التدريس، وأقول هذا لأنى وجدت بعض الدعاة الجدد يستشرفون لهذا التهذيب، ويظنون أنهم إن لم يستطيعوا التأليف فإن عملية التهذيب أسهل وهى فى نطاق الاستطاعة، وليس الأمر كذلك.

* **رابعًا:** استعراض حاضر العالم الإسلامى فى تقارير دقيقة وافية تصدر فى سلسلة كتب ذات معيار منهجى موحد، كل قطر فى كتاب مستقل، وتكون هذه السلسلة آنذاك ركنًا فى منهجية التطوير التربوى القيادى مثلما هى لعموم الدعاة أيضًا، وأنا عندى مثلاً الخبر اليقين عن ثلاثة أقطار لا أظن أن أحدًا يبلغ معرفتى بها: ماليزيا، وإيران، والعراق بلدى، ثم السودان إلى حد ما، وكثير غيرى أعرف به منى، وأنا أنوى أن أكتب عنها، وقد حاضرت عنها كثيرا. ولو انتدب آخرون أنفسهم للكتابة عما هم أدرى به من غيرهم لتكاملت السلسلة، كمثل الأستاذ كمال الهلباوى الذى هو أعلم الدعاة بخبر أفغانستان، مثلاً، والأستاذ الصادق عبد الماجد أعلم الدعاة بالسودان بلده.

وعلى نمط ما سبق أشير إلى وجود كم هائل من أخبار العالم الإسلامى وتحليل أوضاعه فى المجلات الإسلامية والدعوية يحتاج إلى استلال وإعادة صياغة وترتيب، قد نسيه الناس، لكن مجلدات أكثر من ثلاثين سنة لمجلة المجتمع وحدها تكفى لوضع موسوعة عن العالم الإسلامى. وكذا التقارير المودعة لدى كبرى المؤسسات الإسلامية والجمعيات الإغاثية والجامعات، هى لوحدها يمكن أن نستنبط منها موسوعة، مثل التقارير المحفوظة فى إدارة الأزهر، وجامعة المدينة المنورة، وجامعة محمد بن سعود، ورابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، وهيئة الإغاثة بجدة، وعشر جمعيات إغاثية أخرى. ويماثل ذلك خبرة وتقويمات محفوظة فى الصدور لا يستطيع أصحابها لها صياغة أو لا يجدون وقتًا، ويلزم أن يستنطقهم

مستنطق ويأخذ ما عندهم قبل أن يموتوا، وذلك هو واجب من سينتدب نفسه لوضع هذا الكتب.

* **خامسًا:** تعليم الزهديات، ومواعظ الموت، وذكرالآخرة، لأن حياة الترف المعاصرة قد غوت حتى الفقير فى قريته النائية، إذ ليس هو النعيم فقط يلهى، وكثرة المال والرفل فى أطايب الملبس والمطعم والمركب، كما هو شأن من يعيش فى الخليج وأوربا وعموم الغرب، وإنما أصبحت القنوات الفضائية تلهى عن العبادة والتلاوة ووتيرة الجد التى سادت أوساط الدعاة من قبل، ولابد من معادلة الأمر بتخويف ونذارة وذكر خبر القبر وكشف أحابيل الشيطان الذى يفتأ يدعو إلى النار.

وقد فهم ابن حجر من قول النبى ﷺ فيما أخرجه البخارى: «أنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تقحمون فيها» : أنه «إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير، لأن جِبلته مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل»[(1)].

وذلك هو مذهب الحسن البصرى رحمه الله، فإنه كان يقول: «مَن علم أن الموت مورده، والقيامة موعده، والوقوف بين يدى الله مشهده: فحقّه أن يطول فى الدنيا حزنه»[(2)].

ويشهد له قول النبى ﷺ عند البخارى: «لو تعلمون ما أعلم: لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا».

والمدونات القديمة فى المواعظ عظيمة البركة، لكن إنما ينتفع منها من يأنس إلى أسلوب الفقهاء ويعرف لغتهم، والعملية التربوية الدعوية بحاجة اليوم إلى موعظة بأسلوب مجدد، ولغة عصرية، وشواهد شعرية حديثة، مع تمثيلات تلائم أذواق اليوم ومستنبطة من نمط الحياة التى يحياها الناس الآن، وقد شرعت بحمد الله فى إصدار سلسلة «مواعظ داعية» بهذه المواصفات، والتى ستبلغ عشرات الرسائل إن شاء الله، فيها إيمانيات وأخلاقيات مخلوطة بلمسات دعوية، والمفروض أن يتوسع هذا التيار الوعظى الدعوى ويدلى أصحاب التجربة التربوية بدلوهم، ويجعلوا من ذلك معلمًا من معالم منهجية التربية الدعوية، وهو مَعلم عريق،

---

(1) فتح البارى 14/ 100.
(2) فتح البارى 14/ 102.

obeikandi.com

بل أول معانى منهجية التربية الإسلامية، وينبغى أن يدوم، مع تجويد وتحسين واعتناء بالأسلوب، فإن البلاغة إنما تُطلب ها هنا، وفيها زيادة جمال للمعنى، ولا يسوغ الإرخاص.

* **سادسًا:** ترشيد معنى الجهاد، ونقض الأفكار البنلادنية، إذ إن تيار العنف الذى يسمى نفسه بتيار الجهاد لا يعتمد مجرد إثارة العاطفة الجهادية التى قلنا آنفًا بوجوب معالجة أمرها بالتمحيص، وإنما أصبح يفتى نفسه ويجتهد فى أمر الجهاد بنوع تكلف يلوى المعانى والمأثور عن السلف من أئمة الفقه، ولابد من ردود ترجع الأمور إلى نصابها القويم على نمط ما فعل الأستاذ البهنساوى وغيره فى الرد على تيار التكفير، ونحن بحاجة إلى كتاب منهجى فى ذلك، يتناول المسألة فقهيًّا بالبرهان والدليل، وواقعيًّا بذكر مفاد التخطيط والموازنات، وفضيلة الشيخ القرضاوى فارس هذه الحَلبة، وعند غيره خير وفير وعلم ظهير لسنا به بزاهدين، وما لم تدرس المسألة بصراحة فإن تيار الاستعجال سيظل يضع العراقيل فى طريق العمل الإسلامى الحضارى الواعى، بل وقد اكتشف رجال المخابرات ذلك وركبوا الموجة وأصبحوا يشجعون نمو هذه التيارات لما فيها من تعويق للعمل الدعوى، حتى إذا خرج عن سيطرتهم رجعوا يوسعون العنف مسبة ولوما، وإنما هو من صنع أيديهم، يجدون الرجل التقى النقى الذى تستبد به عاطفة الجهاد، فيدسون له من رجالهم من يشجعه ويكون له عونًا، وهى لُعبة معروفة للوعاة.

* **سابعًا:** تأليف كتاب منهجى يعرّف بالتشيع عقيدة وفقهًا وفكرًا وتاريخًا وخطة، بلسان هادىء رفيق، ونفس علمى بحت، لأننا دعوة تلتزم عقيدة أهل السُنة والجماعة، وتحرص الثورة الإيرانية بخاصة على ترويج الفكر الشيعى اليوم فى أنحاء العالم السُنى، وأكثر الشعوب الإسلامية لا تعرف من خبر التشيع شيئًا، لذلك وجَبَ الاحتياط وتعليم الفروق، وليس هذا من التفرقة، ونحن أبرياء من أسلوب هجومى لاذع كان قد ركن إليه إحسان إلهى ظهير، فولد توترًا وتعكيرًا، وإنما الصائب هو أسلوب الدكتور على السالوس، الذى التزم المناقشة العلمية الهادئة، وليس الحرص على وحدة المسلمين ينافى سعى أطراف الوحدة أن يتعرفوا على أقوال المقابل، وتعرّف الشيعى على مذاهب أهل السنة أمر يعنيه، وقد كتب الكاتبون فى ذلك شيئًا كثيرًا سار فى جميع الأوساط، ولكن تعرفى كسُنى على أمر التشيع بالمقابل أمر يعنينى، ولا يجوز الامتناع عنه بتوهم حصول الفرقة، فإن السلبيات إنما يأتى بها القول العنيف، والبحث

الذى يعتمد الأدلة والمنطق مباح ويأتى بالخير دائما، والقضية حساسة جدًّا، ولكن الحساسية لا تلغى حقى فى نصر فقهى وفكرى، وإنما تمنعنى أن أعتدى وأستفز.

* **ثامنًا:** تصويب مدارس الفكر الإسلامى المعاصر، فإن هذه المدارس عديدة، منها فكر فيه اجتهاد خاص، مثل فكر الأستاذ مالك بن نبى رحمه الله، وحسن الترابى، وفكر أسلمة العلوم الذى يتبناه المعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن، ومنها فكر يميل إلى العلمانية ويحاول عرض الإسلام من وجهة نظر علمانية ــ إسلامية ــ قومية تجعل الإسلام أحد مقومات النهضة، مثل فكر محمد عابد الجابرى. ومنها فكر يميل إلى التوسع فى الاجتهاد، مثل ما يذهب إليه الأستاذ كمال أبو المجد وطارق البشرى ومحمد عمارة، ومدرسة الإخوان فيها افتراق عن هذه المدارس كلها فى كثير من دقائقها، أصولاً وتفريعًا، وفكر الإمام البنا رحمه الله حذر فى التأويل الذى توسع فيه هؤلاء، مع وجود قاسم مشترك بينه وبين هذه المدارس، وهى تنتشر بين الناس، وتؤثر فى جمهورنا وأنصار دعوتنا، ولذلك يجب ممارسة عملية نقدية عامة لها بلسان هادئ ومنطق علمى فقهى بحت، ولا أرى أن يكون الاكتفاء ببحوث يكتبها دعاة أفراد، وإنما إنشاء مؤسسة فكرية دعوية تتولى عقد ندوات جماعية بين مفكرى الإخوان وتكون حصيلة هذه الندوات المتكررة الكثيرة هى المادة النقدية، ليعمل الدعاة على بينة، ويميزوا القول المخالف، وهذا الجهد أراه من أدلّ مؤشرات إتقاننا لمنهجية التربية الدعوية، وهو جهد غائب مفقود الآن مع ضرورته، ويلتقى مع طريقة «تمحيض المدرسة» الآنفة الذكر، بل هو الوجه الآخر النظرى العام لها، وإذا زعم أحد أن فكر الإمام البنا لا يخالف هذه المدارس فإنّ زعمه لا يغير من وجوب هذه العملية النقدية، إذ إن القول بوجود المفارقة حاصل متداول، ويكون من حق الدعاة أن تفهمهم هذه الندوات عدم صحة وجود المفارقة، وهذا قول نقوله جدلاً للتدليل على ضرورة هذه الندوات، وإلا فإن الاختلاف مرصود، والوحدة الفكرية فى الجماعة مطلوبة، وهى أساس الوحدة التنظيمية والعاطفية والتربوية، ولا يصح أن نمشى على استحياء، إذ إن الدعاة عرضة للتأثر بالفكر المستاهل المخالف، ولابد من صراحة النقد، ولا يقتضى ذلك إثارة معركة ولا تفسيق المقابل، وإنما نقارع بالحجة وكفى.

* **تاسعًا:** تأكيد الموقف الدعوى فى الوسطية والاعتدال الفقهى، لأن التيارين النقيضين السلفى والصوفى أصبحا عالميين أيضًا، ولهما مراكز ومجلات ومنابر ومواقع إنترنت

obeikandi.com

ومؤتمرات وأنصار، ولهما تأثير على جمهورنا، وأشد ما فى ذلك تجريد السلفية لنا من صفة السلفية التى نحن أساتذتها، وتجريد الصوفية لنا من صفتنا التربوية الإيمانية، وزعمهم أننا لا نتقن ذلك، وهذا هو شأن المعتدل الوسطى دائمًا، لا يرضى عنه من فى الطرفين، وقد قرأت لفضيلة الشيخ القدوة الشجاع نبيل المغرب عبد السلام ياسين نفع الله به مقالاً فى كتابه «الإسلام غدًا» يذهب فيه إلى أن دعاة حركة الإخوان قد بلغوا مبلغًا حسنًا فى إتقان التنظيم والإدارة وتخطيط العمل الدعوى، لكنهم لم يتعمقوا فى التربية الإيمانية، ويقابلهم رجال التصوف الذين زكت قلوبهم من دون معرفة فنون الإدارة، وقد أقلقه هذا النقص المتقابل من الطرفين، فتمنى امتزاج الطائفتين وحصول تكامل بين فكر حسن البنا وفكر محى الدين بن عربى، فأذهلنى ذلك، وعرفت أن الشيخ بحاجة إلى «تمحيض المدرسة» وأنه يتأول لابن عربى ويذهب بعيدًا جدًّا.

وقد استوفى الشيخ القرضاوى فى «أولويات الحركة» شرح معنى وسطية الفكر والاعتدال، ولاحظ أن التربية هى المدخل الأساسى لأى حركة إسلامية، والمهم هو تكوين الطليعة المسلمة المرجوة لنصرة الإسلام، المتخلقة بأخلاق الإيمان حقًّا، ولا يكفى أن يكون هناك أنصاف مؤمنين وأرباع، وهؤلاء الطليعة يتعلمون تقوى القلوب قبل أعمال الجوارح، على طرائق الحسن البصرى والفضيل، ويركزون على إخلاص النية وتجريد القصد، ثم مراقبة الله عند العمل، ثم محاسبة النفس بصرامة، ثم التوكل على الله وتسليم الزمام إليه.

قال: لكن الإخلاص لا يكفى وحده، إنما تجب معه معرفة الصواب وأهون الضررين وأرجح المصلحتين، مع قدر من الاجتهاد فى حقل من الحقول، وهذا لا يتم إلا بقدر من العلم، وببذل الوسع واستفراغ الجهد.

ومشكلة الحركة الإسلامية اليوم تكمن فى أن القاعدة فيها أكبر من قدرة القيادة، ولذلك لابد من إعداد القيادات التى لها قدرات فكرية ونفسية وعملية إلى جوار الشروط الإيمانية والأخلاقية. وليست القيادة هى الشخص الذى يكون فى القمة، بل هى مجموعة عريضة تخطط وتفجّر الطاقات، ولا ينبغى أن تقف القيادات التاريخية عقبة أمام صعود المواهب الشابة، ولابد من اطراح فكرة اختيار القائد مدى الحياة. ثم إن تربية هذه المجموعة يُستحسن

أن تكون عن طريق معهد خاص ذى قسم داخلى يتعايش فيه طلبته، ويخضعون لمنهج واسع يدرسه أساتذة من أهل الفكر الناضج.

وصفات هذا الفكر عند الأستاذ القرضاوى أنه:

* **فكر علمى:** لا يقبل دعوى بغير دليل، ولا نتائج بلا مقدمات، وندرس قضايا الاقتصاد والسياسة والتعليم بروح علمية لا ارتجالية ولا عاطفية، وذلك بتغليب النظرة الموضوعية، واحترام الاختصاصات، وتقويم تجارب الماضى، مع الاستعداد للاعتراف بالخطأ والقيام بالاستقراء والإحصاء، واحترام الرأى الآخر ما دام فى باب يسعه الاجتهاد.

وأيضا: لا نزعم أن وراء كل شىء أيدٍ خفية، فإن التعميم خطأ، وضرر ذلك أنه يدفعنا إلى اليأس، ويعوقنا عن نقد أنفسنا.

* **وهو فكر واقعى:** يقوم على الموازنة بين الطموح والإمكانات، والانسحاب يكون أحيانًا فتحًا، كما كان من خالد رضي الله عنه يوم مؤتة، فلا نتهور.

ومنه: إنهاء الجدل فى قضايا صفات الله تعالى، وخلق القرآن، والمعارك بين السلفية والأشاعرة.

وكذا الجدل حول الجهاد هل هو هجومى أم دفاعى؟ فالباحثون منقسمون، والأولى تأجيل هذا الجدل؛ لأننا لم نقم بعد بالجهاد العينى لإنقاذ فلسطين وغيرها من البلاد المغتصبة، ولأننا عالة فى التسليح على أعدائنا، ومنهم نشترى السلاح، فكيف نهجم عليهم؟ ولأننا لم نقم بكل وسائل التبليغ السلمية، من كلمة مسموعة ومقروءة تساعد على نشر الإسلام وتُغنى عن الحرب.

* **وهو فكر سلفى:** يحتكم للنصوص، ويرد المتشابهات إلى المحكمات، والظنيات إلى القطعيات، والمصير إلى الاجتهاد دون التقليد، وذم البدع وتركها.وقد ظُلمت السلفية من أنصارها كظلم أعدائها لها، وذلك حين ركزوا على بعض مسائل الفقه وعلم الكلام وأثاروا حولها المعارك، إذ المهم أن نأخذ منهج السلف لا مجرّد أقوالهم الجزئية. وخير مَن مثل الفكر السلفى فى العصر الحديث هو الشيخ رشيد رضا رحمه الله .

obeikandi.com

*** وفكر تجديدى:** يؤمن بالاجتهاد ويتبنى التجديد، والتجديد وارد فى الحديث المشهور، ولكن علينا أن نحدد معنى التجديد حتى لا يتلاعب به المتلاعبون، فتجديد الشيء هو إعادته أقرب ما يكون إلى صورته الأولى، والمحافظة على جوهره وخصائصه.

والتجديد يشمل تجديد الفهم، والفقه فيه، وهذا تجديد فكرى. وتجديد الإيمان، وهذا تجديد روحى. وتجديد العمل والدعوة، وهذا تجديد عملى.

وهناك منطقة لا يدخلها التجديد، وهى القطعيات.

ويجب تجديد الوسائل أيضًا بما يناسب الزمان والمكان، حتى وسائل الإمام البنا يمكن تجديدها، وهو نفسه لم يكن جامدًا، بل يمكن أن نعيد بحث نظام «الأسرة» فى التنظيم: صعودًا نحو الوسائل السياسية والجبهات والمحالفات.

إن الجمود آفة من آفات الفكر الحركى، الجمود على شكل معيّن فى التنظيم، وعلى وسائل معينة فى التربية، وعلى مراحل معينة فى الوصول إلى الهدف.

وأخشى ما نخشاه على الحركة الإسلامية أن تضيق بالمفكرين الأحرار من أبنائها وأن تغلق النوافذ فى وجه التجديد والاجتهاد، وعندئذ تتسرب الكفايات العقلية القادرة من بين صفوف الدعوة ويبقى المقلدون الذين يحبون أن يبقى القديم على قِدمه.

*** وفكر وسطى:** بعيدًا عن الغلو والتقصير.

وهو وسط فى كل شىء.

والبعض لا يرى الألوان، بل عنده أبيض وأسود فقط.

وفى الخمسينات والستينات خصوصًا راج الفكر الذى ينزع إلى الرفض والتشاؤم والاتهام، وظهر تكفير، ويرى الأستاذ القرضاوى أن كتابات سيد قطب رحمه الله قد ساعدت على ذلك، ويرى أن الحركة لابد لها من التغلب على فكر المحنة، أو فكر الأزمة، لتنتقل إلى الفكر الوسطى المعتدل المعبّر عن وسطية الأمة المسلمة، ووسطية المنهج الإسلامى.

ثم الوسطية ملازمة للتيسير ورفع الحرج والتخفيف فى الفتوى.

*** وفكر مستقبلى:** يرنو إلى الغد، ولا ينحصر فى الحاضر، وفى القرآن مثل ذلك، فيه بشارة أن: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر] وفيه تنبيه إلى أن الروم من بَعد غلبهم سيَغلبون.

obeikandl.com

* **عاشراً:** توفير كتب المنهج ومستلزماته فى كل قطر.

وهى قضية تنفيذية بحتة، لكن أهميتها توجب بحثها هاهنا، بأن نعيد طبع الكتب التى ندرت فى السوق مما هى ضمن كتب الدراسة فى المنهج أو كتب المطالعة، مع إحسان توزيعها،وتسريبها إذا مُنعت. فإن التجارب تفيد بأن جمهور الدعاة فى بعض الأقطار يعانى من ظاهرة عدم وجود بعض كتب المنهج، والحل الأمثل فى ذلك أن يوكل أمر توفيرها فى كل قطر إلى مكتبة تكلف بهذه المهمة، ويستحسن توفير طبعات شعبية رخيصة فى البلاد الفقيرة بالاتفاق مع المؤلفين عبر مكتبة عالمية مؤتمنة لا تعتدى على حقوق المؤلفين بتوزيع الرخيص فى البلاد الغنية.

* وهذه التوجهات العشرة فى سد النقص أو توسيع ما هو صغير أكثرها كما هو ملاحظ: مركزى غير قطرى، ولكن يمكن تنفيذه باتفاق المركز مع الأقطار، وبتقاسم الأدوار وتوزيع الواجبات، فينبغى الانتباه لذلك، كما أن بعض هذه الكتابات المطلوبة قد لا تستطيعها اللجان التربوية نفسها، إنما المطلوب أن تنسّق مع بعض الكتاب والمفكرين لتدوينها، والمعنى المهم الذى قصدناه أن لا ننتظر ما يجود به المؤلفون لنجعله منهجًا، بل أن نحصى الموجود عندنا، ثم نحدد الثغرات والنواقص ونضع خُطة لكتابتها بالتعاون مع أهل الفكر والدعاة من أساتذة الجامعات وعلماء الشرع، سواء ما أشرت إليه من توجهات ومواضيع، وذلك مبلغ اجتهادى ومفاد خبرتى، أو غير ذلك من مواضيع ترى اللجان وجوب توفرها، ولو تم عقد مؤتمرات مصغرة لاكتشاف النقص لكان ذلك حسنا، لندفع قَدَر العَدَم بقدَر الوجود، إذ السلبية باطلة، والله الموفق، وهو الذى يعين مَن يصارع أقدار النقص.

لوازم العمل التربوى المتقدم

ومن معانى المناورة التربوية أيضًا: الاستجابة التطويرية لمقتضيات الحاجة والتوسع وتغير الحقائق الميدانية، إذ لكل زمان ومرحلة ما يناسبها، والمرونة واجبة، ولابد من مواكبة تطلعات الدعاة، والاستفادة من المعطيات المدنية الجديدة، مع العلم بأننا لا نستطيع دائما تحديد ما هو تربوى فقط من هذه الوسائل التطويرية، إذ يندر أن يكون لعمل ما وجه واحد من النفع، بل ربما تكون الوجوه عديدة،ويكون التأثير تربويًّا وتنظيميًّا وسياسيًّا فى آن واحد.

obeikandi.com

وأرى أن التطوير يجرى فى ثلاثة خطوط:

* إيجاد مؤسسات، أو القيام بأعمال تخدم العمل المؤسسى.

* وتطوير الدعاة بالتربية القيادية.

* وأساليب إدارية وعلمية وإبداعية ترفع مستوى الأداء.

* **ففى الخط المؤسسى:**

* **الانطلاق من مركز بحوث ذى مكتبة متطورة**، وذكرناه بوفاء فى موضع آخر، وأشرنا إلى آثاره التربوية الحسنة وما يؤدى إليه من شعور التجاوب مع الفطرة فى الامتلاك والحيازة، ونشير هنا إلى ما يمكن أن تقوم به خطط المركز من مناورات تربوية متنوعة، ومن أظهرها:

استطاعة تشغيل عدد وفير من الدعاة ببحوث وندوات وتقارير ميدانية، بحيث ترتفع البطالة عنهم وتمتنع الوسوسة، ومنها أيضًا: الإملاء المعنوى لوجود المركز، حيث تميل العناصر الفوضوية والارتجالية إلى الأداء النظامى المرتب المتناسق خوفًا من رقابة مفترضة ونظرات ناقدة يوحيها وجود المركز بين ظهرانيهم، كمثل رب العائلة يراقب أبناءه، والوجود القيادى رقيب كذلك، لكن المركز أقرب إلى حياة الدعاة اليومية. ومنها أيضًا: إبقاء عرق الإبداع حيًّا فى نفوس الدعاة، وتعمير الحاسة الخاصة به، لأن من مفهوم البديهة فى عمل المراكز: ترويج الابتكار، والإتيان بجديد، والانتفاض على التقليد، وافتراض مجاراة العصر وموازاة أحدث ما فى سوق الفكر وأساليب التربية والتدريب، والدعاة فى مثل هذا يتجاوبون مع المركز ويحاولون إرضاء ظن رجاله بهم، لما يعلمون من أنهم إنما انتصبوا لذلك، بينما يمتزج شخوص القيادة بمعنى الهيبة والسيطرة والسطوة والصرامة والضبط، وهى صفات تجعل الدعاة فى حياء واحترام مضاعف، وربما فى وجل، فى حين يكون الانطلاق مع السجية عند التعامل مع باحثى المركز، والحواجز زائلة ابتداء، ويظهر استرسالٌ فى التعامل المفتوح السهل يقدح زناد الإبداع.

* **إصدار مجلة تكون محورًا للأداء الفكرى للعناصر النابهة من الدعاة**، يتحلقون حولها، وبها يحتفون، ولومضتها يورون، فتربيهم على دوام اليقظة والإنشاد إلى الهدف ومواصلة العطاء وكمال الإيجابية، بذلك نحوز تشغيلًا لفئة أخرى غير الفئة التى حرّكها المركز، فضلًا

عن آثارها التربوية العامة فى جمهور قرائها، وآثارها الإعلامية والفكرية، بل لها أثر مباشر فى إكساب مجموعة محرريها وكتّابها «هوية» خاصة بها يُعرفون فى المجتمع العام، بل يتعدى أمرهم الحدود فيُعرفون عالميًّا إذا انتشرت المجلة، وهذه الهوية فى مفتاح باب التطور، إذ لا يبقى حائزها سائبًا عائمًا مركونًا فى هامش ومدار مغلق، وإنما منسوبًا إلى مجموعة قِيَم أذكتها المجلة، وممثلا لها، وحاميًا ومروّجًا، ومناديًا بها ومالكا، أى يكون نقطة إشعاع مستقلة، وذلك يعنى ثباتًا على الدرب، وتثبيتًا لعشرات من حوله تسرى لهم عدواه، كما يعنى ذلك تأسيس وازع ذاتى للتطور ينعكس أيضًا على مَن فى بيئته الدعوية، وهكذا تكون مناورة التحريك التربوية، كل وسيلة تتكفل بتحريك ثُلة، كمثل جيش صدر له أمر التعبئة والسير إلى الجبهة، فمنهم من يركب السيارات، ومنهم من تحمله الطائرات، وتتكفل البواخر بخدمة، والقطارات، فيكون الحشد الذى تحسم هيبته الأمر دون حاجة لرمى وقتال.

* **إتقان استعمال مواقع الإنترنت الدعوية،** وإكثارها، ورصد كفايات عالية لها، لتكون محورًا ثالثًا فى التشغيل وإدامة الصلة، واستثمار عامل السرعة فى نشر الخبر والتحليل والنظر، وكما أن لهذه المواقع أبعادًا عالمية، وأخرى تمس تربيتنا لجمهورنا وجميع الصالحين، فإن لها بعدًا قطريًّا خاصًّا داخليًّا له أهميته فى الوحدة إزاء الأحداث وفى تحديد المواقف، لتوفر عامل السرعة فى الإبلاغ، والمتابعة المباشرة، وانفتاح الطريق بين القاعدة والقاعدة، وتجربتنا فى ذلك ما تزال فى أولها، وينتظرنا خير كثير يأتى من هذه الإنترنت التى هبطت علينا هدية شبه مجانية قلبت الموازين لصالحنا، وفتقت على مكممى الأفواه فتوقًا، وكسرت الاحتكار الإعلامى، والمهم أن تتذكر اللجان التربوية جيدًا أن نصف حجم المناورة التربوية التى نحتاجها يمكن أن يتوفر عبر التفنن فى استخدام هذه المنحة الربانية، وأظن أنه يليق جدًّا عقد أكثر من مؤتمر فى كل بلد بين المربين وأهل الفكر من الدعاة ومهندسى الكمبيوتر للوصول إلى تصورات وافية فى الاستخدام الأمثل للمواقع، وستكون العملية كلها منفذ تشغيل لرهط آخر من الدعاة يمنع البطالة عنهم، ويضعهم تلقائيًّا فى تيار العمل والإنتاج المثمر، فوق الفوائد العديدة التى نكسبها من ذلك والتأثيرات التربوية والإعلامية فى نفوس الدعاة والأنصار معًا، بل وفى الغرباء، فلربما يلهو فضولى فتستقر كلمة فى قلبه يسمعها من الموقع، فتكون بداية إنصات جاد ثم يقظة، ثم اقتراب.

❋ **أداء الدور القطرى فى القناة الفضائية الإسلامية الثقافية العالمية،** وهى قناة ينتهى فصل «الفيزياء الدعوية» فى هذا الكتاب إلى اقتراحها، وأخالها ستكون إن شاء الله، إذ تلك هى سُنة التطور، وما أظن أن التفريط يمكن أن يستطرد لأكثر من المقدار الذى حصل، ولكل متسيبٍ أوان توبة إذا كان معدنه نقيًّا، ولكل راقد تكبير يوقظه ليسبّح إن كان مؤمنًا، وستكون من بعد جفلة ذكر ميزانية القناة سكينة ترجع بالراغبين الخائفين إلى تفكير بأناة وهدوء يكتشفون معه قرب رحمة الله تعالى لدعوته وإمكان جمع ما يظنونه صعبًا إذا وكلوا الأمور إلى أهلها.

وهذه القناة ستكون العنوان الأكبر فى منهجية التربية الدعوية الجديدة وستقلب المعادلات، من غير اضطرار لعنف وشجار وصدام، بل بالعمل، ومفهوم الحضارة، والآية وتقرير المختبر.

فماذا أعددنا لها وهى قريبة تكاد أن تُشرق؟

صعوبتها ليست الصعوبة المالية، إنما صعوبة المادة الموضوعية وإعداد البرامج، ووسائل الإيضاح، ووجوب علو لغة التحليل والشرح، والنظرات الشمولية الناقدة، ودقة التقارير العلمية، وهذه أمور لا يمكن أن تفى بها المجموعة التى ستتولى الإدارة الثقافية لمشروع القناة مهما كانت واسعة وجديرة، وستقتبس جزمًا من الإنتاج الغربى العلمى بكثرة، وقد يلزمها تحوير بعضه، ولكن الرفد الأساسى ينبغى أن يأتيها من مجموعات قطرية كثيرة تبتدع كل مجموعة لنفسها طريقة وأسلوبًا وفنًّا فى التفهيم والإخراج وتبسيط العلوم واستعمال المشوقات، ولذلك ينبغى التبكير فى ندب بعض الدعاة فى كل قطر من أهل المستوى الثقافى العالى أو أهل الاختصاص والخبرة، ليقوموا بتحضير ندوات، ودروس مشروحة مؤيدة بوسائل الإيضاح، وتصوير الحياة البرية وعجائب الخلق فى قطرهم،والأدوات العلمية الأثرية المحفوظة فى متاحفه والتى تشهد بالتفوق الإسلامى الحضارى، مع تصوير دقائق فن العمارة الإسلامية، ثم محاورات مع العلماء والمفكرين والأبطال والشعراء والساسة فى بلدهم ممن عُرفوا بنقاء السيرة والجد والإخلاص، وجعل كل ذلك -وأشياء أخرى يبتكرونها- رصيدًا لهذه القناة العالمية.

obeikandi.com

* **توجيه الأدوار الإيجابية التى تقوم بها الجمعيات الإسلامية العامة** فى التربية عبر محاضراتها ومواسمها الثقافية ومهرجاناتها وإصداراتها الفكرية ودوراتها الشرعية وأُمسياتها الأدبية، وعبر استخدام بيئتها النظيفة فى حماية الشباب بأشكال النشاط الشبابى والرياضى، وهذا الجهد قائم بحمد الله بصورة طيبة فى بلاد كثيرة، ولكن باستقلال، وكأن هذه الأنشطة ليس لها مردود تربوى، والواجب فيما أرى أن يكون للجنة التربية ضلع فيها، ومشاركة فى وضع هندستها وخططها، بما يحقق الانسجام فى الأداء التربوى المتنوع، وتكمن فى ذلك قابلية مثيلة لقابلية الحزمة الليزرية التى تنتج من توحيد قول الواعظ والخطيب والصحفى والأستاذ الجامعى، مما ذكرناه فى فصل آخر.

حتى العمل الخيرى عبر جمعياته له وجه تربوى تدريبى مؤكد؛ فهو يتيح تشغيل ثلة نمنع عنها البطالة، على نحو ما يؤدى إليه عمل المركز والمجلة، ثم هو يضع الداعية وجهًا لوجه مع الناس، ويخرجه من العزلة، ويعلمه التعامل مع الناس، ويمنحه منبرًا ينطلق منه ويختصر له الطريق، ولذلك لابد من الخروج فى الأداء الإغاثى عن النمط الرتيب الإدارى الذى يجعل القضية ميكانيكية، إلى نمط جديد فيه توسيع القاعدة التوزيعية الممارسة لإيصال الإغاثة إلى أهلها على طريقة التطوع المجانى، لتحقيق انفعال عاطفى وانفتاح نفسى، مع غرس ثقة وتحصيل خبرة.

* **ممارسة التحريك المركزى عبر غرفة عمليات لها أساليب سيطرة ورقابة وتنسيق**، وهذا الابتكار الإدارى الذى تعمل به الجيوش والإدارات الواسعة وتشكيلات إدارة الأزمات: نافع جدًّا، لأنَّ تراكم القرارات القيادية، والخطط التى تقرها القيادات، وتوصيات المؤتمرات، والالتزامات العالمية، والاستجابة لتحديات التطور السياسى اليومى، والإعلامى والثقافى: كل ذلك يجعل المسجَّل على قائمة التنفيذ ألف نوع من العمل، وكل نوع من العمل يقتضى جهدًا يقدمه عدد من الدعاة يُسمون بأسمائهم أو يشار إليهم بصفاتهم، وبذلك تتوسع الجمهرة التنفيذية إلى ألوف دعاة، كل يُعنى بأمر ويرابط على ثغر ويسد حاجة، والقيادة إنما تُكلف بفكر ونظر واجتهاد وتقويم واتخاذ قرار، لا بمتابعة تنفيذية، لذلك وَجَب إسناد التنفيذ والتحريك إلى غرفة عمليات، لا تتابع التحشيد فقط، بل حتى الواجبات الفردية فى إعداد بحث، أو كتابة مقال، أو عقد ندوة، وغياب غرفة السيطرة هذه أراه هو المسئول جزئيًّا

عن الضعف والترهل إذا ظهرا، فكم من قرار صحيح تطويه الأيام، وتكليف يُنسى، على أن الأمر لا يعنى سَوقًا عسكريًّا بغلظة، ولا التضحية بأواصر الأخوة الرحيمة.

*** وفى خط التربية التطويرية:**

* التأكيد على دورات التخصص ذات المحاضرات، والمطالعة المكثفة، والتحاور مع الخبراء ووجوه الإدارة والسياسة والاقتصاد، مما فصّلناه فى «معًا نتطور».

* ثم كلية الأركان الدعوية المقترحة فى «المسار».

* وينبغى أن تحتل مشاهدات الأفلام والفيديو مساحة واسعة فى هذه العملية التطويرية، ولكنى أرى قلة الاهتمام بذلك، وأدعو إلى أن تكون هذه المشاهدات توجهًا رئيسًا فى الفهم الجديد لمنهجية التربية الدعوية، وأن تكون اللجنة التربوية فى القطر هى المسئولة عن تجميع هذه الأشرطة بالتعاون مع المركز وجهات أخرى، وأن تُشترى شاشة عرض 27 إنش كبرى للعرض، وما أظن أن العناوين ستكون أقل من ألف عنوان، وبعضها فى أكثر من شريط، وهى خليط من ندوات دعوية متميزة، وخطب لمشاهير الدعاة ذات أهمية استثنائية، وبرامج غربية مترجمة عن الحروب والأحداث الكبيرة والشخصيات السياسة المهمة، مع أفلام ممثلة لقصص شهيرة، وأفلام تسجيلية توثيقية لأحداث غدت مفاصل فى التاريخ الحديث والمعاصر، مع أفلام علمية، وتعريف بالعالم الإسلامى، وأنا مقتنع بأن وعى الداعية، وفتح عينه على حقائق الحياة والصراع، وتوسيع إدراكه لمعنى الشر وطبائع أهله، ومعنى الخير: إنما يمر بعضه عبر هذه المشاهدات، والعلم والمطالعات قد تجعل الرجل صالحًا، ولكن تبقى فيه بقية من بساطة، ومعرفة قصة الحياة مصورة تتكفل بعلاج شطر كبير من هذه البساطة ويتحول الداعية بعدها إلى نباهة تتيح له إتقان دوره الدعوى، وربما تغرس فى أعماق نفسه الرغبة فى أن يترك أثرًا فى صناعة الحياة أسوة بهؤلاء الذين تركوا بصماتهم وآثارهم ممن رأى سِيَرَهم وعرَفَ بذلهم، من بين محق ومبطل، وسيرى لقطات حقيقية حية لأبطال عشقوا الحرية، ولتضحيات جماعية، ولأفكار بدأت بومضة فى عقل رائد، فبشّر بها، فغدت فكرًا سائدًا له دولة، فيدأبُ يقتدى.

* وتسمية التخصصات المفيدة فى قائمة طويلة، وتنسيب داعية لكل تخصص منها أو أكثر، ليكون هو المستشار، ومبعوث الدعوة إلى مؤتمر موضوع التخصص، والكاتب فيه فى

obeikandi.com

صحفنا، والمحلل له فى تليفزيوننا أو وسائل الإعلام عامة، والسفير الدعوى إلى موطن تخصصه، والمحاضر فيه فى الدورات وكلية الأركان، وواضع الكتاب المنهجى فيه، فى فوائد أخرى.

وتبدأ هذه الحملة التخصصية فى كل قطر بتنسيب داعية لكل قطر آخر يدرسه بإمعان ويتعرف على خبر الدعوة فيه والأحزاب والحكومة، وعلى جغرافيته وسياسته واقتصاده وتاريخه، وهى أقطار العالم الإسلامى، ويصح تكليف داعية واحد بمنطقة إقليمية تضم عدة أقطار تجمعها ظروف متشابهة، ثم بعض الأقطار غير الإسلامية إذا كانت مهمة أو فيها أقلية إسلامية، فهذا لوحده سيبرز خمسين من أهل الخبرة ربما، ففى اليمن مثلا يلتزم داعية دراسة السودان، ويكون خبيرًا به، وآخر للصومال، وآخر للإمارات، وهكذا، وقد يكون أحدهم لدراسة جنوب شرق آسيا كلها.

ثم يلزم داعية أو أكثر تكوين خبرة له بأسعار النفط وأوبك، وآخر بمنظمة التجارة العالمية وآثارها على البلاد الفقيرة، وآخر بالتخطيط الإستراتيجى، فى سلسلة من الاهتمامات الموضوعية المماثلة توجد لنا بعد سنين عشرين خبيرًا.

ثم يكون دفع وتشجيع وإقحام ومساعدة بعض الدعاة لنيل الدكتواه فى الأدب والإعلام والتاريخ والاقتصاد السياسى والقانون الدولى والقانون الدستورى وأمثال ذلك فى سلسلة أخرى تنتج لنا بعد بضع سنين ثلاثين خبيرًا.

وهكذا تتكفل المناورة التربوية برفع البطالة عن مائة داعية على الأقل وتضعهم فى شغل خير دائم، وقد ذكرت فى فصل آخر هذا المنحى التخصصى، وأردت من تكراره هنا الإشارة إلى آثاره التربوية، ثم إلى تكامله مع الاقتراحات الأخرى القريبة منه، وإلى العمدية التخصصية التى ننتظرها من لجنة التربية فى ذلك وعدم ترك الأمر إلى مقادير همم أفراد الدعاة أنفسهم.

وتجربتنا تفيد أن بعض من سُيكلف سيكون نزعه ضعيفًا، ويكسل بعد حين ربما، ولا أرى أن تكون ردة فعلنا تجاهه قوية، إذ إنه سيستدرك لاحقًا حين يرى أقرانه قد أنتجوا، ونمو الخبرة فى ذلك بطىء عادة، ولا يأتى بقفزة، ومن اللائق أن نهدى لكل داعية يدرج فى درب

obeikandl.com

التخصص بعض كتب فى موضوع تخصصه، ونعلمه كيفية صنع أرشيف له، ونشجعه بتمويل رحلة إلى البلد المختص به، أو ندفع له بعض نفقات دراسته العليا إذا كانت فى نفس الموضوع.

* ويبقى طريق صياغة الشخصية الإسلامية الدعوية أقرب من ذلك لمن شاء أن يستقيم، وفى التواضع بركة مؤكدة مجربة، ومع اللبث الطويل فى المساجد ما بين الصلوات يأتى إلهام وتتفتح بصائر، وفى زيارة المقابر موعظة توقظ من غفلة، والجلوس مع فقراء الناس ومحاورتهم يُطلع الداعية على وجه من الحياة ينبغى أن يعلم خبره لتتوازن تطلعاته، ثم فى ارتياد مجالس العلم الشرعى وثنى الرُكَب بين يدى المشايخ نوع وقار هو بحاجة إليه، ورزانة ورجولة ونضوج، وكانت هذه هى وسائل الرسوخ فى جيلنا عند نشأتنا، ثم نبغ عصر الكمبيوتر فرفع الاسترسال مع البساطة، وأصبح الإيمان الإلكترونى هو السائد فى الساحة، ووجب علينا أن نقبل ونساير التطور، إنما أنا أخشى التحرك الميكانيكى والاستئسار إلى البرمجة، إذ فى عمران العواطف الأمل، وأخاف أن تطرأ يبوسة، فلولا احتاط منغمس لغده.

وعندى أن اللبث لموسم فى مكان هادئ يعادل الأمر، مثل ثلاثة أشهر يقضيها الداعية فى قرية إسلامية فى عمق أدغال أفريقيا، أو عزلة فى واحة صغيرة فى صحراء ذات رمال، أو على قمة جبل شاهق، أو فى جزيرة نائية، وكنت سابقًا أقول بلبث فى أماكن الجدّ الساخنة ومواطن النكبات، ولكن أهل العنف منعونا بتهورهم، فحرمت علينا الكثير من الأماكن.

إنما ما يزال ممكنًا أن يرحل سبعة معًا إلى محاضن العلم، مثل الأزهر والقيروان وفاس ومكناس ولكنو بالهند، ليشافهوا العلماء ويزدادوا خيرا، ثم يعاودوا فى سنة أخرى القيام برحلة لفحص الآثار الإسلامية ببغداد ودمشق والقاهرة، وإيران وتركيا والجزائر والمغرب والأندلس، وعندئذ ستُطبع النفس بطابع خاص، وتُغرس الأصالة وأحاسيسها ومحركاتها.

وتقليدًا لعمر بن عبد العزيز رحمه الله حين جعل رقيبًا عليه ينبهه إذا غفل: هممتُ أن أقول بوجوب تفريغ داعية محتسب مهنته أن يدق أبواب الدعاة ويقحم نفسه فى شأن إخوانه، ويقول خمس لاءات فقط: لا تغتر، لا تتبطر، لا تكسل، لا تغفل، لا تنس أن تسقى القلب فإنه عطشان.

*** وأما فى خط الأساليب الإدارية والإبداعية فيمكن:**

* إبراز رموز وزعامة دعوية عامة: فإن ذلك من الاستجابة لفطرة مغروسة فى النفوس فى متابعة قدوة ووكيل ورائد يتقدم، وفى الروح فراغ لا تملؤه إلاصورة زعيم يقود، وعلى ذلك مدار التحريك وإبقاء النبضات وإذكاء المشاعر، وانظر ما جلبة شخوص الإمام البنا والسباعى والصواف رحمهم الله من آثار تجميعية وتربوية حسنة، وما فعلته شخصية أربكان فى أتباعه، وصدارة محفوظ النحناح لمسيرة السلم الحازم الواعى، وأنا أعجب من بقاء أجزاء من الحركة حتى الآن بلا زعامة، مع أن بعضها مخضرم، مثل العراق، ثم يأتيك من يلوم الأفراد وأنهم لا يبادرون ولا يواصلون النشاط، ولا أدرى كيف تسوغ الملامة وقد انثلم التكامل وفُقدت حلقة فى سلسلة التحريك؟

إن وضوح الهدف عامل تحريك، وإشهار قضية عامل آخر، ووجود آلة إعلامية عامل، والمنابر والمنطلقات والمؤسسات عامل، وكذا أيضًا فى نفس السياق: وجود رموز وقيادة ظاهرة نازلة إلى الساحة تتكلم وتكون قريبة من الأتباع عامل آخر من أهم العوامل، وإذا اقترن وجودها بفكر ومؤلفات كان أمرها أتم، وإذا حالت الظروف الأمنية دون بروز الزعامة لزم ظهور زعامة مهاجرة تنتصب مثالاً، فإن العالم اليوم كقرية واحدة، والخبر والتأثير يتجاوز الحدود ويخترق.

بل وملت فى «أصول الإفتاء والاجتهاد» إلى إظهار أبهة الزعامة، وأوردت قول الفقهاء فى ذلك.

وإذا سمحت الظروف فإنى أرى أن يكون للقائد ديوان عام يُطل فيه على الناس عامة من بعد الدعاة، ويستقبل فيه الوفود، ويولم الولائم لكبار الضيوف، ولذلك يجب توفير ميزانية له وطبّاخ وسكرتارية وحرس، فإن ذلك يجلب نصف الولاء المطلوب.

ولستُ أقول بأن اللجنة التربوية تتولى ذلك، ولكنى أفوضها أن تدافع عن نفسها إذا اتهمها متهم بضمور النتيجة التربوية إذا لم يكن ثمّ زعيم ظاهر.

* تقليل الاجتماعات الأسرية للقدماء، والاجتماعات الإدارية العامة، لتوفير وقت للنشاط والتطوير. وكذا فى محيط الشباب: تقليل الألعاب الرياضية بما يتيح مجال التعليم والسيرة الجادة.

فلماذا لا أجعل الاجتماع الأسرى شهريًّا لمن أتم مواصلة المنهج أربع سنوات متواصلة أسبوعيًا.

وقد عدّ الشيخ القرضاوى (من مظاهر التعصب: المبالغة فى المحافظة على الأشكال التنظيمية للحزب أو للجماعة، كأنها أمور تعبّدية، حتى يضحّى فى بعض الأحيان بمصلحة الدعوة الإسلامية، والأمة الإسلامية كيلا تخدش الصورة التنظيمية.

وهذا خطأ شنيع فى الفهم، فالأشكال التنظيمية «وسائل وأدوات» تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، وليست أصنامًا تُعبد أو غايات تُقصد لذاتها كما يفهم ذلك من تصرفات بعض الغلاة فى احترام التنظيم) [1].

* ممارسة حوار دائم بين الدعاة عبر مؤتمرات صغيرة وموسعة، وتعليمهم الصنعة النقدية الشورية، وذلك من أدل أنماط طلب الإبداع ولمعة الفكر والفهم المرن، وماذا يعنى تخريج عناصر كثيرة مقلدة بتربية تلقينية مجردة من دون آفاق منفتحة؟

ولكن هذا الحوار يكون خطرًا ويؤدى إلى تبرّم وظلم وقول جُزاف ما لم تتوفر سبعة شروط تضمن حُسن التداول:

* وجود تربية روحية عامرة بالمواعظ والرقائق، وأقل ذلك توفير الكتب التى فيها تذكير بمعانى الآخرة والزهد، كى تكبح جماح الاستعلاء على المؤمنين، وتمنع الغرور، وترُدّ الجميع إلى إنصاف.

* وضوح النظرية السياسية الإسلامية الدعوية بخاصة، وعموم الفكر، من أجل أن يحتكم الجميع إلى موازين وقواعد ومبادئ سَبَقَ اتفاقهم عليها واعترفوا بها، فيقل القول الشاذ والغريب، وتخصيص النظرية السياسية بالذكر لأن أكثر الاختلافات إنما تكون فى المواقف السياسية.

* أن تكون هذه المؤتمرات فى زمن العافية ووحدة الصف، فإن كانت هناك فتنة: سددنا كل ذريعة للجدل وأرجأنا المندوب من أجل الفرض.

(1) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم/ 133.

obeikandi.com

* وضوح نظرية شروط التوثيق والتأمير، لئلا ينخدع الشباب بذى لسان ومستشرف.

* وأن تكون المجموعة قد تجاوزت حد المراهقة ونضجت مرحلتها.

* مع وجود قدوات ودعاة قدماء من أهل الدين والتأنى والحكمة، ليعجلوا الرد على واهم يحرف الحوار إلى تحديات، ولكى يكون ثمّ حياء منهم يحفظ الجميع فى دائرة الهدوء.

* أن لا يكون ثمّ إكثار من الحوار على حساب العمل، فتغلب علينا صنعة الكلام والتمنى والخيال والتحليق وراء الواقع، وكل إفراط شين، والعياذ بالله من علم لا ينفع.

فإذا توفرت هذه الشروط: كان تعليم صنعة النقد مصدر خير إن شاء الله، إذ ليس من قلد فى كلامه وآرائه كمن استقل ووَصَفَ من بعد معاناة وتجربة واستفزاز لمكنون الأفكار عبر حوار.

وإذا وصــفْتَ الــشىءَ متّبعًــا — لم تخـلُ مــن زلـلٍ ومــن وهــم

ومن كلامى الذى لم يُنشر:

«إن الانحراف فى فهم وظيفة النقد هو أحد أكثر وجوه الخطأ فى فهم سَنَن الحياة والتاريخ، وأبلغها نأيًا عن المنهجية وعن التأثير فى عالم الواقع، ولا يملك مرتكب هذا الخطأ غير المراقبة المتشائمة السلبية العاجزة عن تقليل الشر أو تكثيف الخير، ولو أنصف المتأسفون أنفسهم لرأوا فى جريان القدر الذى تعرضت له الجماعة حكمة مرافقة هى واضحة ليست خفية.

ونحن أبرياء من بدعة الاستسلام للقدر، ولنا وعى يدعونا إلى مصارعة القدر بالقدر، ولكننا ندعو المتشائم إلى الاعتراف معنا بأن محاولات الأمس لم يكن سندها نضوج الكفايات الإسلامية بوفرة تماثل الحاجة، وزننا كنا نحاول أمرًا صعبًا معقدًا برجال دون دربة شاملة».

«وهذا المقدار من القول هو تجربة مستفادة ووعى حادث مستجد لاحق، ليس لنا أن نلزم جيل الأمس بمنطق اكتسبناه اليوم.

إن التبدلات السياسية والفكرية العامة هى بمنزلة المنعطفات الرئيسة فى الحياة، ولن يُختصر لها الزمان، وإنما تعتمد على عملية نضوج متسلسل هو إلى الإبطاء أقرب، ولن تستطيع

الفكاك من التدرج والتتابع والانتظار، فإن التبدل هو من الأمور ذات البال، ولن يفرض التطور نفسه فى الساحة دفعة واحدة وكتلة صماء، ولكنه يتجزأ إلى أجزاء، وتنقسم مقدماته، فتكون محاولات التنمية والتكميل، والتفافات التفتيش عن البدائل.

وإذن، فإن المرحلة السابقة لم تكن هدرًا لتبدى أسفك، بل لعملك جذور وأصول متمثلة فى تلك المرحلة، ولن تستطيع أن تنطلق من نقطة جديدة وإنما تلك الانطلاقة الأولى منذ العشرينيات هى البداية، وقد صالت وجالت فى ميدان التطور والتكيف، وتلزمك مثل تلك الجولات إذا استأنفت، وكما أنك ابن أبيك صدقًا فإنك أخو الرعيل السابق حقًّا، وإليهم تنتسب، شئت أم أبيت، وقد نضج اليوم دعاة كثير عددهم، فاصعد عاليًا فى بنائك رأسيًا على أساس الأمس الوطيد، داعيًا ربًّا رحيمًا أن يغفر لك ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان، بلسان فصيح، فإنهم قد علموك الفصاحة».

* * *

obeikandl.com